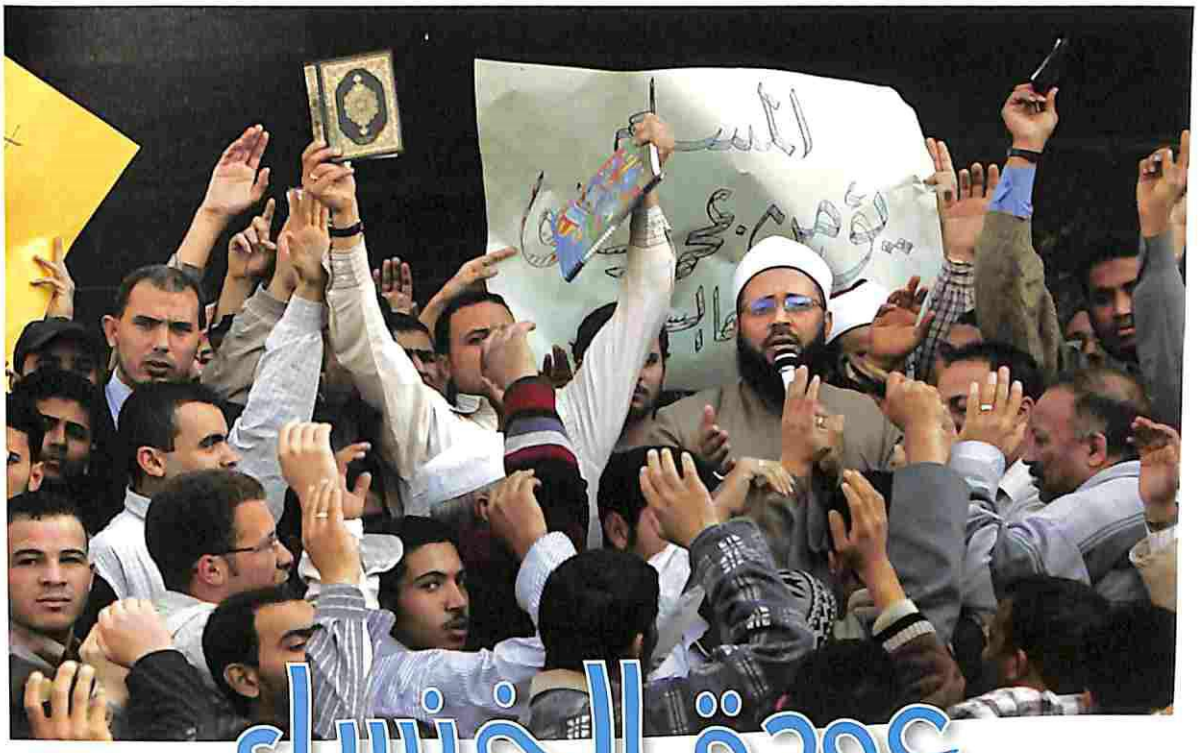

عودة الخنساء

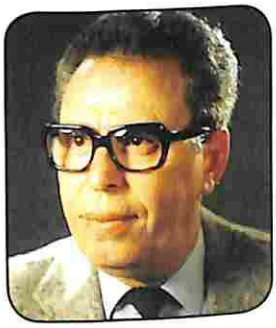

د . غازي مختار طليمات - سورية

- المشهد الأول -

(في صدر المسرح صرح ضخم، كأنه قلعة قديمة، تخترق جدار السور الخالي من الأبواب عجوز تتكئ على عصا غليظة وتطل من المنصة على جمهور محتشد وراء باب حديدي من قضبان متقاطعة. وأمام الباب جنود أشداء يدفعون الجمهور والباب المغلق، فيتزعزع الباب ولا يفتح).

العجوز تناجي نفسها-:

ويحك يا تماضر

شخت، ولم يشخ طموحك المغامر

متِّ، ولكن ما طوت شبحك المقابر

أتعشقين الخلد أم يكرهك الفناء؟

العجوز وهي تنظر إلى الصرح والجموع:

ما ذلك الصرح الذي يناطح الجوزاء؟

ومن أولئك الرجال الحمس والنساء

العجوز توجه كلامها إلى شرطية تحت المنصة:

أيا ابنتي، أيتها الفارعة الفرعاء

أين أنا؟

وما الذي يجري أمامي هاهنا؟

الشرطية وقد شهرت مسدسها مهددة:

ويلك، من أين ارتقيت المعقل المحصنا؟
وهو لحاكم البلاد القلعة الشماء
ويلك، كيف جزت كل هذه الحصون؟
هيا أنزلي من قبل أن أوردك المنون
العجوز: وردتها والله من قرون
لكنني لما أزل أعد في الأحياء
الشرطية: هيا انزلي
قبيل أن يصعد من مسدسي القضاء
قبيل أن يرفعك الموت إلى السماء
العجوز: لن تستطيعي أبدا
الشرطية وهي تطلق النار: بل أستطيع
وإليك من مسدسي الردى
العجوز وقد تصيدت الرصاصة من الهواء:
أبالحديدة التي شهرتها تختصر الأعمار؟
أم في نواة تمرة تختبئ الأقدار؟
العجوز وهي تدفع الرصاصة إلى الشرطية:
خذيْ التي زعمت أن طيها هلاكي
بأمره، لا بأمر من ولاك
هو الذي يمسك أو يهلك
لا ذاك الذي أشلاك
(الشرطية ترمي بضع رصاصات والعجوز تتصيد الرصاصات وتقدمها إلى الشرطية):
لن تستطيعي أبداً
فالميت لا يموت
إليَ يا ابنتي، إليَ قبل أن أفوت
وقبل أن يطير بي الملاك في الأفلاك
الشرطية وهي صاعدة: من أنت؟
ما تخفين في العباءة السوداء؟
كيف تصيدت سهام الموت بالأنامل العجفاء؟
لم تجرحي، وبعضها يكفي لقتل حوت
أمن نساء الجن أم ساحرة شمطاء
العجوز: لا ذي ولا ذي، إنني تماضر الخنساء
الشرطية وهي مروعة: من أنت من؟
الخنساء: أم البنين الأربعة !؟
أم الذين استشهدوا وهم رماح مشرعه
أكرمني الله بهم
منذ قضوا في المعمعه
وبث في منهم الروح التي تعانق البقاء
وحيثما توثبت أصقاعنا الموات للجهاد
بحثت عن بني في مخايل الأحفاد
الخنساء وهي تشير إلى الجمع المحتشد: هاهم أولاء أبصري
الشرطية بعد أن ترسل بصرها:
لم أر غير فرقة من عسكر
ترد عن حاكمنا تدفق الغوغاء
وليس فيهم أحد يحب الاستشهاد
الخنساء: أعني الألى يزلزلون هذه القضبان
كأنهم أبنائي الشجعان
الشرطية: ألم يبيدوا؟
الخنساء: استشهدوا، ثم أعيدوا بعد للميدان
فالشهداء لا يبيدون ولو مزقت الأشلاء
بادوا وعادوا عودة الربيع
وعودة الخصب إلى التراب بعد الجدب والصقيع
الشرطية: وكيف عادوا؟
الخنساء: اخترقوا حواجز الزمان والمكانْ
ليبعثوا النخوة في الخائف والجبانْ
الشرطية: أنت إذن ومن ولدت مصدر البلاءْ
أنت وأبناؤك قد أثرتم الدهماء
نشرتم الوباء في الأرض وفي الفضاء
وهجتم الفتنة في جوانح الشبان
الخنساء: أي وباء ذا؟
الشرطية بعد أن رن هاتفها الجوال: نعم، جيهان
حالا، سآتي ومعي أسيرة رعناءْ
مخبولة، وتدعي بأنها الخنساءْ

(الشرطية تخرج كبلا وتعلق إحدى حلقتيه في يد الخنساء وتجرها بالأخرى):

امضي ورائي

أسرعي

(الخنساء وقد نزعت الكبل وقدمته إلى الشرطية):

أمضي بلا كبل ولا تمنع

الشرطية: كيف فتحت القفل؟ والمفتاح جاث في يدي

الخنساء: كما نفذت من جدار صرحك الممرد

بقدرة القاهر لا بقدرة الإنسان

- المشهد الثاني -

(قاعة كبيرة تتصدرها منضدة فخمة وراءها خمسة قضاة في زي كنسي، وعلى رؤوسهم ضفائر بيض، وعلى جانب المسرح الأيمن تقف الخنساء في قفص الاتهام تحرسها جيهان، وعلى الجانب الأيسر قفص كبير فيه شبان معتقلون)

الخنساء: من هؤلاء الخمسة الكبار؟

جيهان: قضاتنا الذين عنهم يصدر القرار

الخنساء: وما على رؤوسهم؟

جيهان: أغطية من شَعَر أبيض مستعار

الخنساء: أكلهم صُلّع وقُرّع؟

جيهان: لا، لا، وهل في الصلعات عورة أو عار؟

رمز القضاة

الخنساء: بئس هذا الرمز من زور ومن خداع

أيدعون العدل، والزورُ على هاماتهم شعار؟

ومن كساهم كسوة الكهان والأحبار؟

أمن بني النضير هم أم نسل قينقاع؟

جيهان: زي الفرنج

الخنساء: ويحكَم ما أقبح المسخ والاتباع !!

(كبير القضاة بعد استشارة من حوله وقرع المنضدة بمطرقة خشبية):

باسم ظلال الأمن في دولتنا المحترمة

باسم القوانين التي تدين كل مجرم ومجرمه

باسم انسياح موجة التطبيع باسم العولمة

يفتتح الجلسة قاضي المحكمة

الخنساء: من أين جاءت هذه الأسماء؟

من باطل التلمود، أم من بدع نكراء؟

بهن قد تقضي على راشيل لا الخنساء

القاضي: فلندع الأسماء والألقاب

أما زعمت أنك اقتحمت سورا، ماله أبواب؟

من أين جئت؟

هل هبطت فوقنا من كوكب المريخ؟

الخنساء: خرجت من محرابي الوادع في التاريخ

ذاك الذي يحيا، فلا يهرم، لا يشيخ

كبير القضاة: من أين جئت؟

الخنساء: لست أدري

كبير القضاة: كيف لا تدرين؟

وفيم رعت شعبنا في ربعه الأمين؟

فجرت فيه هيجة، لم يرها

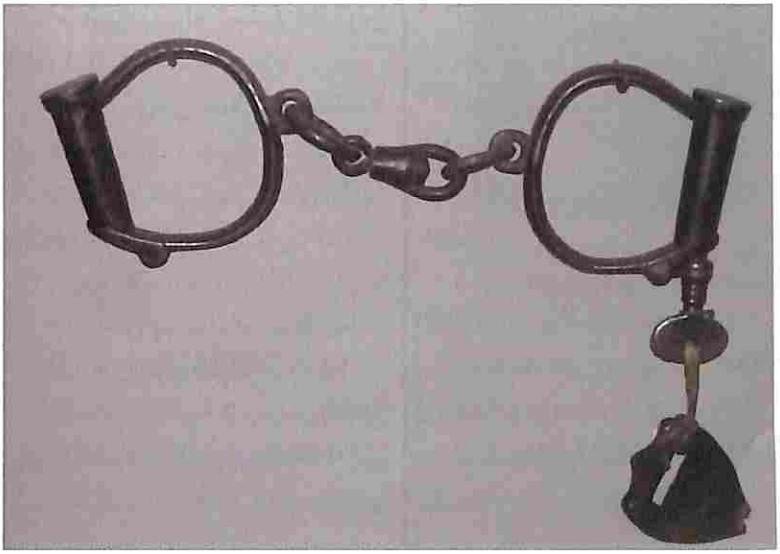

التاريخ من سنين
الخنساء: قد قلتها ولم أزل
أقول: لست أدري
وكل ما أدريه أن ملكا قد شق عني قبري
نشرت منه قبل يوم النشر
بارحته هائمة أبحث عن أربعة البنين
وكل من حاورني أنكرني
حتى نكرت أمري
كبير القضاة: أأمس كان ذاك؟
الخنساء: لا، من دهر
بل من سنين غبرت، تعد بالمئين
كبير القضاة: ما زلت عن أربعة البنين تسألين
أنت إذن عن أرؤس الفتنة تبحثين
طوفي بها جيهان بين القوم أجمعين
لعلها تدلنا على رؤوس الشر
جيهان وهي تقود الخنساء إلى القفص الكبير: هيا انظري
الخنساء: من كل هؤلاء؟
ما هذه الملامح العرباء؟
أنى تجولت أصافح أوجه الأبطال
خلف سجون القهر والإذلال
من كل هؤلاء
جيهان: قلت انظري، أذاك من بنيك
الخنساء: يا لشمخة الجبال !
والعزة القعساء في سواعد الرجال
الخنساء بعد تفرس-: نعم
وذا..وذاك.. والليث الذي إزاءه
وكل من أبصر أو يبصرني وراءه
القاضي الأول:أكلهم بنوك؟
الخنساء: كلهم نعم
لا تلد الأشبال إلا لبوةٌ بين الأجم
القاضي الثاني: أقررت، والإقرار سيف
فوق رأس المتهم
الخنساء: وإن تشأ فإنني أشفع قولي بالقسم
نعم، نعم
أربعة كانوا، وهم في عصركم ألوف
إذا انقضى زحف أتى من خلفه زحوف
موج وطبع الموج أن ينساح في صفوف
أن يرفض الركود، أن يناطح الشطآن
كبير القضاة: عودي بها جيهان
جيهان وهي تدخلها القفص الصغير: هيا ادخلي
لا تمضغي حرفا إذا لم تسألي
الخنساء غاضبة: تأمرني جيهان يا قضاة بالسكوت
ولو عشقت الصمت لم أخرج من التابوت
فالصمت للإنسان موت قبل أن يموت
كبير القضاة: رفقا بها جيهان
فإن أقسى ما تقاسي المرأة السكوت والكتمان
الخنساء: وإن أعدى ما يعادي الظالم اللسان
كبير القضاة: صدقت لكن لا يعادي الألسن الرزان
بل ألسن الإجرام
الخنساء: ما اجترم الشباب يا قضاة كي يعتقلوا؟
القاضي الأول:لم يعقلوا الألسن لم يمتثلوا
الثاني: لم يعملوها في الذي يباح فيه العمل
الثالث: بل أعملوها في الذي يحرم النظام
الخنساء: وما المباح؟
الرابع: أن تلوك هذه الألسنة الطعام
الخنساء: وما الحرام؟
كبير القضاة: ولغها المشبوه في مستنقع الكلام
الخنساء: أفي الخنى والقذف؟
القاضي الأول: ليس القذف في القانون بالحرام
الخنساء: هل أخبروا الأعداء بالأسرار؟
الثاني: أعداؤنا أدرى بما نكتم من أسرار
الخنساء:هل نقدوا الزعيم
الثالث: لا، لقد لُقِّنوا المدح وهم صغار
الخنساء: هل جهروا بالكفر؟
القاضي الرابع: لا، بل بالذي يبغضه الكفار
الخنساء: وما يضير إن رضوا

أو أبغضوا؟
أو رفضوا وامتعضوا
كبير القضاة: الضير فيما أرجف الشبان فيما حرضوا
الخنساء: أأرجفوا بالكيد للسلطان؟
أم حرضوا الناس على الطغيان؟
كبير القضاة: لا ذا ولا ذا
فهم أجبن من فئران
قد أرجفوا بجارة كالحمل الوديع
وأرسلوا في شرقنا مباضع التقطيع
وناهضوا العولمة السمحة والتطبيع
الخنساء: من هذه الجارة؟
ما العولمة السمحة، ما التطبيع؟
أسمع ألفاظا ولا أدرك ما تحويه من معان
كبير القضاة: جارتنا وادعة، تدعو إلى السلام
تؤمن بالأمن وبالوئام
وتكره الخصام
لكنها مذ جاورتنا تشهر الحسام
الخنساء: ما هذه الوداعة المشحوذة النصال؟
في جارة تنزع للصيال
وأي سلم سلمُ من يتخذ الأهبة للقتال؟
أما اعتدت يوما على النساء والأطفال؟
كبير القضاة: عن غير قصد
حصدت بضعة آلاف من الأرواح
الخنساء: في الدور والحقول أم في ساحة الكفاح؟
كبير القضاة:في دير ياسين وقانا
الخنساء: قل: وفي بحر البقر
حسبك قد عرفتها
تلك التي تقتات من لحم البشر

ولا تحسّ الأمن إلا حين تنشر الخطر
قد حدث التاريخ عن تاريخها المقرون بالأرزاء
حدث عن فطيرها المعجون بالدماء
عن شعرها المخضوب بالنجيع لا الحناء
ليس لجارة تروم الجور من جوار
فبرِّئوا بني كي يأخذوا بالثار
ويغسلوا أوضار هذا العار
الشبان من وراء القضبان بصوت واحد:
يا أمنا الخنساء ياسيدة النساء
بدمنا التواق للفداء
سنغسل الأوضار
وندرك الثأر ونمحو العار
كبير القضاة وهو يضرب بالمطرقة:
لا تزعجوا القضاة بالضوضاء
والهتف باسم هذه المخبولة الحمقاء
بل اهتفوا للسلم للتطبيع للعولمة السمحاء
الخنساء: عدت إلى الهراء
واللغو بالتطبيع والعولمة السمحاء
ما القصد بالعولمة السمحاء والتطبيع؟
كبير القضاة: القصد أن نذوب الأبعاض في الجميع
أن نمحو الفروق
أن نمرج الأديان والألسن والعروق
في عالم يقر فيه الجار للجيران بالحقوق
الخنساء: أيرجع الغاصب كل ما اغتصب؟
وتخلص الأرض من المحيط للخليج أرضا للعرب
ويطرد المحتل مما احتله أو استلب
كبير القضاة: قاطرة التطبيع لا تمشي إلى الوراء
ترنو إلى الموجود لا المفقود في القضاء
وتجعل الحاضر أولى زمن نحياه بالبقاء
وتدفن الغابر في مقابر الفناء
لتدخل الشعوب في الفردوس، أي في العولمة
الخنساء: أقبح بتطبيع يروم القهر والتركيع !!
يسوقنا وراء جزار، كأن شعبنا قطيع
ويسحب الشرق وراء الغرب كالتبيع
ليبلع البلاد والتلاد، بئس البلعمه
وبئس ما تكيد للأمة هذي المحكمة
القاضي الأول: إن الذي قد قتله يدين ألف متهم
القاضي الثاني: بلا شهود أو دليل أو قسم
القاضي الثالث: فليصدر الحُكْمَ الحَكَمْ
(كبير القضاة يشاور زملاءه والشبان يهتفون من القفص بصوت واحد):
علام هذا الهمس والتشاور؟
والحكم أيا كان حكم جائر
وهو عن التطبيع لا التشريع
من قبل الصدور صادر
كبير القضاة وهو يضرب بالمطرقة:
باسم ظلال الأمن والتطبيع
باسم العولمة
وبعد إقرار صريح من فم المتهمة
نحكم بالموت على الخنساء
والسجن والشغل على الأبناء
الشبان بصوت واحد: يا أمنا الخنساءُ يا سيدة النساء
قتلك لن يقتل ما أحييت من إباء
بل يبعث النخوة في أحفادك الأحياء
في جيلنا السجين
في شعبنا الرافض للتهجين والتدجين
(تنطفئ الأنوار ثم تعود فإذا قفص الخنساء فارغ)
الشباب يصرخون بصوت واحد:
عادت إلى السماء
عادت إلى محرابها الوضاء
فليحكموا ما يحكمون، حكمهم هباء
عادت إلى السماء
(في أثناء الإنشاد تسدل الأستار ببطء
وتنتهي المسرحية) ■